

تَكْتُمُ النصوص الأولى: بولس وسرقس

صَمِتَ بولس؟

نعلم بأن رسائل بولس هي مؤلفات عرشيّة. فقد كُتبت إلى جماعات خاصّة وكانت مرتبطة بمشاكل معيَّنة وخاصّة بهذه الجماعات، باستثناء الرسالة إلى أهل رومة والرسالة إلى أهل أفسس (ومن المعلوم بأنّ صحتّهما هي مثار نقاش) اللّتين تصرفان النظر أحياناً عن الحياة الواقعيّة. لكنّ المواضيع التي تعالجها، أي العلاقات بين الإيمان المسيحيّ والإيمان اليهوديّ، وأوليّة المسيح أو سرّ الكنيسة، سبق أن ناقشها وبعنف مسيحيّون حقيقيّون. فالرسالة إلى أهل رومة تستأنف الحرب الكلاميّة التي مرّقت جماعة أهل غلاطية، والرسالة إلى أهل أفسس تستوحي من مناقشات كنيسة قولسي، حتّى إنّ هاتين الرسالتين اللاهوتيّتين نفسيهما هما، بمعنى من المعاني، عرضيّتان ولا تأتيان بعرض تامّ لما ربّما قد كان، على سبيل المثال، فكر بولس المسيحيّانيّ. وإذا صحّ أنّ بولس لم يأتِ على ذكر مريم، أفيجب الاعتقاد حتمًا بأنّه لم يعرف شيئاً عنها؟ لوحظ، ولا شكّ، عدم وجود مراجع في رسائل بولس إلى حياة يسوع الأرضيّة، وهذا أمر مُدهش لأوّل وهلة. ولكن لا بدّ

من العلم بأنّ بولس، الذي يصف نفسه بالرسول، ليس هو رسولاً بالمعنى الذي حدّده بطرس في سفر أعمال الرسل (١/٢٢-٢١)، فإنّه لم يرافق يسوع «مذ أن عمّد يوحنا إلى يوم رُفِعَ عنّا». وهو لم يعرف يسوع في حياته قبل الفصح، إذ إنّ الذي لقيه في اختبار حاسم (رسل ١٩/١-١٩) هو القائم من الموت. وفي غل ١/١، يكتب أنّه تلقّى إنجيله من الله مباشرة، بل بوحى من يسوع المسيح. لكن هناك نصوصاً أخرى تلزمنا بالأخذ بما كتبه على حرفيّة، وتثبت لنا أنّ بولس تأثر أيضاً بالتقاليد المسيحيّة الأولى. ففي مصطلحاتٍ اقتبسها بولس من التقليد الرّبانيّ، يكتب أنّه هو أيضاً «تسلّم» و«سلم» إنجيله الذي يختصّ بموت يسوع وقيامته بحسب الأسفار المقدّسة (١ قور ١٥/٣). ويخبرنا هو نفسه بأنّه لقي بطرس وأقام معه خمسة عشر يوماً (غل ١/١٨). وحين يستعمل، في الرسالتين إلى أهل غلاطية وإلى أهل رومة، كلمة «أبّا»، يستعمل لفظةً هي صدّى لصلاة يسوع ويرقى عهدها إلى أقدم التقاليد الإنجيليّة. فلماذا لا يكون قد اطّلع أيضاً على أحداث

رافقت ميلاد يسوع؟

في الواقع، ومن غير أن يستعمل بولس لغة يوحنا في التجسد، كان مطلقاً على مذلات ابن الله، وعلى ولادته من نسل داود وموته كالملعون على صليب. وهناك بضعة نصوص قد تلمح، بحسب رأي بعضهم، إلى الحبل البتولي، وهي التي يجب فحصها أولاً: فل ٧/٢ وروم ٣/١ وبوجه خاص غل ٤/٤-٥.

نصوص كتبت قبل القديس بولس عن ولادة يسوع

في فقرة شهيرة من الرسالة إلى أهل فيلبي (١١-٦/٢)، يستشهد بولس، بحسب مجمل النقاد، بنشيد طقسّي استعملته الجماعات الأولى. وهذا النشيد يلخص، من الناحية اللاهوتية، مسار المسيح، منذ وضعه الإلهي الأصلي حتى ارتفاعه النهائي في المجد، مروراً بالمدلة (التجرد من ذاته) في الوضع البشري والموت على الصليب. ففي ٧/٢، ورد في النص: «تجرد من ذاته وصار على مثال البشر، علماً بأن فعل «γίνωμα» يمكن أن يترجم بـ «صار»، ولكن معناه الأول يبقى معنى «وُلد». فالمسيح وُلد إذاً على مثال البشر، أي «إنساناً كسائر البشر». يستهونا أن نرى في هذه العبارة نفي الحبل البتولي، الذي ليس هو طبعاً حبلاً عادياً. ولكن ذلك يقتضي أن تكون هذه الحقيقة معروفة، والحال أنها ليست ثابتة. وبالعكس، يشدد نقاد آخرون على كلمة «ὁμοίωμα» (مثال)

التي ليست مرادفة لـ «تطابق» ولا «مساواة»، ويعتقدون بأن بولس يشير هنا إلى الحبل البتولي، كما في روم ٨/٣ «أرسل الله ابنه في جسد يشبه جسدنا الخاطي».

هذا قول مبالغ به من كلا الطرفين. يبدو أنه لا يحسن بنا أن نتوقع من قبل بولس، الذي كان أول من وجب عليه أن يتبدع لغة لاهوتية جديدة للتعبير عن سرّ المسيح، دقة الصيغ التي وضعت بعده.

ولكن، كيف يجوز لنا، استناداً لمجرد كلمة «مثال»، أن نبني تلميحاً إلى حقيقة لا تصدق كالحبل البتولي؟ فالخطر يكمن بالأحرى في أن ندخل في نص بولس أفكاراً لم يعبر عنها إلا بعده بزمان طويل. هناك نص آخر يُستند إليه، وهو نص روم ٣/١-٤. ففي مطلع الرسالة إلى أهل رومة، يورد بولس عبارة إيمانية أو صيغة كرازية على جانب من الأهمية. فهو يكتب أن بشاره الله التي يعلنها «تختص بابنه الذي وُلد من نسل (σπέρμα) داود بحسب الطبيعة البشرية، وجعل ابن الله في القدرة، بحسب روح القداسة، بقيامته من بين الأموات، ألا وهو يسوع المسيح ربنا».

بالرغم من عبارة «وُلد من نسل داود»، بحسب الطبيعة البشرية»، نقول إن هذا النص لا يتكلم صراحة على مريم. ومع ذلك، نضيف أن كلمة «زرع» (σπέρμα) تُستعمل هنا بالمعنى المجازي الذي عرفه الكتاب المقدس (راجع تك ١٢/٧: «لنسلك (σπέρμα) أعطي هذه الأرض» - مز ٨٩/٥ «لأُبشّر نسلك (σπέρμα) للأبد»)

ولا يمكن أن تكون حجة لاستبعاد الحبل البتولي. صحيح، من جهة أخرى، كما سترى أدناه، أن لوقا في ٣٥/١ يستعمل المواضيع الثلاثة التي وردت في روم ١/٤: الروح والقدرة والتبني الإلهي، لوضع صيغة لسر الحبل البتولي. لكن ما جاء من التقليد (وربما ضمه بولس إلى تحريره) وبولس نفسه لا يتخطى مسيحانية القيامة التي نجدها في سائر مؤلفات بولس.

مولود لامرأة

ما هو أكثر أهمية لموضوعنا هو النص الذي ورد في غل ٤/٤-٥، لأن كثافته اللاهوتية تستلفت الانتباه. فبعد استهلال مهيب يشير إلى طول تاريخ المشروع الخلاصي، يصف بولس الجدة الخارقة التي يتسم بها التدخل الإلهي عن يد يسوع المسيح: «فلما تمّ الزمان، أرسل الله ابنه مولوداً لامرأة، مولوداً في حكم الشريعة ليفتدي الذين هم في حكم الشريعة، فنحطى بالتبني»^(١).

يسير النص بخطوط متوازية متشابهة: توازٍ أولاً بين «مولود لامرأة» و«مولود في حكم الشريعة». فالعبارتان تشددان على مدلة الله. والعبارة «مولود لامرأة» هي عبارة كتابية (راجع أي ١/١٤ و١٤/١٥

و٤/٢٥، وحك ٣/٧) ويهودية (في قمران، توازي «خليقة الخزف» التي تدل على عدم ثبات البشري). أما عبارة «في حكم الشريعة» فإنها تدلّ طبعاً على وضع ارتباط. والفقرة لا تشدد على المرأة التي ولدت، بل على مدلة المولود. وهناك أيضاً توازٍ بين الغائيتين: «ليفندي... لنحطى...»^(٢).

الملاحظة الأولى: يوضح بولس أن ابن الله «مولود لامرأة»، فيعني في الوقت نفسه أن إحدى نساء نسلنا أصبحت «أم ابن الله البشرية» (أ. فانهوري (A. Vanhoye)، المرجع نفسه، ص ٢٤٣. لكن هذا النص هو أشدّ تعقّداً، وهناك ينشأ طراز آخر من التوازي، ويكون غريباً في هذه المرة وفي شكل تعارض. فإن الابن، لكي «يحرر» الذين كانوا في حكم الشريعة، يخضع هو نفسه للشريعة. لا يخفى على بولس أنه لا يكفي الإنسان أن يصبح في حكم الشريعة ليحرر الذين في حكمها، أو، كما سبق له أن قال (غل ٣/١٣)، «أن يصبح لعنة» (يشير بولس إلى الخشبة التي يُعرض عليها «الملعون» في تث ٢٧/٢٦) «ليحررنا من لعنة الشريعة». فبالطريقة التي يصبح فيها لعنة («بوجوده بنفسه» من أجل خطايانا (غل ١/٤)، و«عن محبة» لنا (غل ٢/٢٠) يفتدينا.

من المفيد أن يتمّ تفكير مماثل بين

(١) إنّ التبني (υιοθεσία) هو لفظ حقوقيّ يستعمله بولس بالمعنى الدينيّ.

(٢) في مقالة تبقى مرجحاً لا يُستغنى عنه: «أم ابن الله بحسب ما ورد في غل ٤/٤»، في Marianum ٤٠ (١٩٧٨)، ص ٢٣٧-٢٤٧، حلّل فانهوري (Vanhoye) تلك التوازيات تحليلًا دقيقًا.

«المولود لامرأة» و«لنحظى بالتبني». ولكي يصبح ما هو غريب مفهومًا، أفلا يجب أيضًا أن تكون ولادة ابن الله قد تمت بطريقة تختلف عن طريقة سائر الناس؟ إن الألفاظ التي استعملها بولس لا تشير إلى حبل بتولي. ولكن، كما أن العبارة السلبية «المولود في حكم الشريعة» تُخفي، بحسب القرن الأدبي الغريب الذي يتسم به هذا النص، بُعدًا إيجابيًا يساعدنا على أن نفهم كيف يستطيع المسيح أن يفطينا، كذلك، فإن عبارة «المولود لامرأة»، التي هي سلبية في حد ذاتها، لأنها تدلّ على المذلة، يجب أن تُخفي، بحسب القرن الأدبي الغريب نفسه، بُعدًا إيجابيًا من شأنه أن يبرز تبنيًا إلهيًا. فما هو ذلك البعد الإيجابي؟ إن بولس لا يفيدنا عنه شيئًا.

«في ما يختص بطرق الخضوع للشريعة، هناك نصوص أخرى كتبها بولس تمكن من توضيح موقفه. أمّا في

الإنجيل كما رواه مرقس

وبعد بولس، نجد فقرتين مقتضبتيّن عن مريم في إنجيل مرقس. في الأولى، تظهر مع «إخوة» يسوع (٣١-٣٥). والأخرى تشير إليها فقط، برفقة إخوة يسوع أيضًا وأخواته، لكنها تسميها باسمها للمرة الأولى (١٦-٦). نعلم بأن مرقس لا يروي التقاليد المختصة بطفولة يسوع. فهل كان يجهلها؟ يجوز أن نظن ذلك، مع أن تأويل الصمت ليس هو أبدًا أمرًا سهلاً. على كل حال، ففي نظر مرقس، كما في

وبعد بولس، نجد فقرتين مقتضبتيّن عن مريم في إنجيل مرقس. في الأولى، تظهر مع «إخوة» يسوع (٣١-٣٥). والأخرى تشير إليها فقط، برفقة إخوة يسوع أيضًا وأخواته، لكنها تسميها باسمها للمرة الأولى (١٦-٦). نعلم بأن مرقس لا يروي التقاليد المختصة بطفولة يسوع. فهل كان يجهلها؟ يجوز أن نظن ذلك، مع أن تأويل الصمت ليس هو أبدًا أمرًا سهلاً. على كل حال، ففي نظر مرقس، كما في

إن الفقرة مر ٣/٢٠-٣٥ تشكّل وحدة تجوز قراءتها بحسب التخطيط التالي:

أ) تدخل أقارب يسوع: ٢٠/٣-٢١.

ب) إتهامات الكتبة وردّ يسوع: ٢٢/٣-٣٠.

أ) أسرة يسوع الحقيقية: ٣١/٣-٣٥.

أدخل مرقس، وفقًا لأسلوب إدراجي ألفه، جدالًا مع الخصوم في اورشليم، في مشهد يواجهه يسوع فيه أسرته. فالآيات ٣١-٣٥ تحدد أسرة يسوع الحقيقية، إذ إن يسوع يقول في الذين واللواتي يصغون إليه ويعملون بمشيئة الله إنهم أمّه وإخوته وأخواته. وهذه الأسرة الجديدة تنشأ من الإيمان بالإنجيل ومن قبول بشرى الملكوت التي يُعلنها يسوع (راجع ١/١٤-١٥).

فالأسرة بحسب اللحم والدم بقيت خارجًا، في حين كانت الأسرة الإنجيليّة والأخيرة في داخل البيت، جالسة حول يسوع، ومن الراجح أن هذا البيت أصبح، في نظر مرقس، صورة للكنيسة.

ولكن ماذا حلّ إذا بأسرة يسوع البشريّة؟ هل هي بُذت؟ إن النصّ، الذي يحدّد الكنيسة الأسرة، يعبر عن ذلك بوضوح. لكنّ الآيتين ٢٠-٢١، اللتين تبدأ بهما هذه المجموعة وترويان حكمًا قاسيًا في يسوع، تُلقيان على المشهد كلّ، بما فيه الآيات ٣١-٣٥ التي تذكر «أمّ» يسوع، أجواء سلبية. لا شك أننا نستطيع أن نبين أن هاتين الآيتين ٢٠-٢١ كانتا تنتميان إلى تقليد يختلف عن تقليد الآيات ٣١-٣٥، إذ إن الآية ٣١/٣ تظهر بمظهر بداية مشهد لا يحتاج إلى أيّ تهديد آخر. ومن جهة أخرى، فإن الذين يريدون أن يستولوا على يسوع يُشار إليهم بعبارة غامضة جدًا

تقليد يختلف عن تقليد الآيات ٣١-٣٥، إذ إن الآية ٣١/٣ تظهر بمظهر بداية مشهد لا يحتاج إلى أيّ تهديد آخر. ومن جهة أخرى، فإن الذين يريدون أن يستولوا على يسوع يُشار إليهم بعبارة غامضة جدًا

إبن مريم (٣/٦)

وفي الفصل ٦، يأتي يسوع إلى وطنه، أي إلى الناصرة على الأرجح. ويعلم في

المجمع، ونرى أنَّ السامعين كانوا، في الوقت نفسه، مُعجَّبين (من أين له هذا؟ وما هذه الحكمة التي أعطيتها، حتَّى إنَّ المعجزات المبيّنة تجري عن يديه) ومتعثرين (أليس هذا النجّار ابن مريم، أخا يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان؟ أولست أخواته عندنا ههنا؟). فقال لهم يسوع: «لا يُردى نبيّ إلّا في وطنه وأقاربه وبيته». إنَّ هذه الكلمات الأخيرة عن

متّى ٥٥/١٣	مر ٣/٦	لو ٢٢/٤	يو ٤٢/٦
أليس هذا ابن النجّار؟ أليست أمّه تدعى مريم؟	أليس هذا النجّار ابن مريم؟	أما هذا ابن يوسف ذاك	أليس هذا يسوع ابن يوسف ونحن نعرف أباه وأمّه؟

إنَّ ما لفت الانتباه ليس هو، بوجه خاص، أنَّ يسوع قد مارس التجارة، بل إنّه يُسمّى هنا «ابن مريم»، من دون أيّ ذكر لأبيه. لقد أوّل هذا الأمر بطرق كثيرة. رأى بعضهم أنَّ عبارة «ابن مريم» تشبه عبارة «المولود لامرأة» التي وردت في غل ٤/٤ والتي تهدف إلى الحطّ من قيمة يسوع. ورأى بعضهم الآخر (وهذا التأويل يعود إلى الواجهة باستمرار) أنَّ المقصود هو تعريض تشهيريّ. إذا صحَّ أنَّ يسوع سُمي باسم أمّه، وهذا أمر يناقض العادات النسيّة اليهوديّة حيث يُسمّى الابن دائماً بالنسبة إلى أبيه، فلائّه لا أب له، أي إنَّ أباه غير معروف وأنَّ يسوع هو وُلد غير شرعيّ. وإذا كنّا نستطيع أن نأتي ببعض الشواهد غير الكتابيّة على مثل هذا الاستعمال لاسم الأمّ، فإنّا لا نجد ولا شاهدة واحدة وردت في الكتاب المقدّس نفسه. صحيح أنَّ بعض الفقرات الإنجيليّة قد تؤكّد نظريّة عدم الشرعيّة (يُراد بذلك شكّ يوسف في متّى ١٨/١٩ أو جواب اليهود في يو ٤١/٨: «نحن لم نولد لزنى»، إن كان الضمير «نحن» مفعّلاً والنسبة اليهوديّة حيث يُسمّى الابن دائماً ويقابل يسوع ضمناً). لكن طريقة مرقس في

الكلام تكون دقيقة جدّاً، وكما رأينا كيف أنَّ قراءه اليونانيّين، الذين وجب عليه أن يشرح لهم أبسط العادات اليهوديّة (راجع مر ١٧/٤-٤)، كان في إمكانهم أن يدركوا معنى التلميح.

وعلى النقيض الأقصى، رأى بعضهم في عدم ذكر يوسف دليلاً دقيقاً يشهد على اعتقاد محرّر الإنجيل بحبّ يسوع البتوليّ. لا يُذكر الأب لأنّه لم يكن هناك أبٌ بشريّ. ذلك بأنّه جدير بالذكر أنَّ مرقس لا يتكلّم أبداً عن يوسف، في حين أنَّ متّى ولوقا، اللذين كانا مطلّعين على تقليد الحبل البتوليّ، لم يخشيا أن يتكلّما عنه. لكنّ هذا الرأي لا يقبل التوفيق إلّا بمشقة مع النظرة السلبية التي ينقلها إلينا مرقس عن أسرة يسوع. وإذا كان مرقس مطلّعا على سرّ الحبل البتوليّ، فإنّ شمله مريم في مجموعة الذين لا يفهمون رسالة يسوع يصبح عندئذٍ مقلّلاً من قيمتها عمداً. على كلّ حال، لم يرَ متّى ولا لوقا ممكناً أن يوفّقا بين تقليد عدم التفهّم هذا والحبل البتوليّ. فعلى مستوى تحرير إنجيل مرقس، ليست فكرة الحبل البتوليّ قريبة إلى المعقول. ومن الراجح أن نكتفي بالقول، بمزيد من التواضع والبساطة، إنَّ

يسوع يسمّى «ابن مريم»، لأنَّ يوسف قد توفيّ منذ زمن طويل، في حين أنَّ سكّان الناصرة كانوا يعرفون حقّ المعرفة مريم أمّه، وإخوته وأخواته الذين ما زالوا حاضرين. رسمياً، من المفروض أن يكون يسوع معروفاً كـ «ابن يوسف»، كما رواه متّى ولوقا ويوحنا. لكنّ عبارة «ابن مريم»، التي تكون غريبة في إطار نسيّ، ليست غريبة على لسان سكّان قريته.

ومع ذلك، نلاحظ أنَّ الذي يسمّيه مرقس «ابن مريم» هو أيضاً من يصفه بأنّه «ابن الله» (١/١ و ٦/١٢ و ٨-١٣/٣٢ و ١٥/٣٩)، وقريب من الله حتّى إنّه يستطيع أن يصلّي إليه قائلاً: «أبا، يا أبته!» (١٤/٣٦). لكنّ مرقس نفسه لا يتوسّع في ما تفترضه هذه الهويّة. وإذا صحَّ أنّه أوّل من يُطلعنّا على اسم أمّ يسوع، مريم، فإنّه لا يدلّ على تفكير أعمق في سرّ تلك المرأة الفريدة وفي سرّ أمومتها. إنَّ إنجيله ما زال ينتمي إلى زمن التكتّم. وإن أوليائه أكثر من ذلك، نكون قد حملناه اهتمامات لم تأت إلّا في وقت لاحق، عند متّى ولوقا ويوحنا.